موقف الدولة العثمانية من التحرك العسكري لمحمد بن الرشيد عام 1891م

أ.د. كريم طلال الركابي

غفران حكمت خضير

الجامعة المستنصرية/ كلية التربية الأساسية

المقدمة

كان محمد بن الرشيد رجل سياسي من الطراز الاول ويعرف مايريد وصاحب فطنه وذكاء لذلك قام بتعيين محمد بن فيصل حاكما على الرياض نتيجة الظروف التي مرت على الدولة السعودية الثانية، وكذلك نتيجة تخوفه من تألب الرأي العام ضده،فلقد ذكر ابن الرشيد احقية ال سعود في الحكم ،فلقد حكموا نجد قرابة قرن ونصف القرن لذلك لم يكن سهلا على سكان الجزيرة العربية قبول حاكم جديد من غير اسرة ال سعود، ولاسيما بعد ما الت اليه الامور واصبح الامير عبد الرحمن مشردا في الصحراء .

كان محمد بن فيصل معتقلا في حائل عام 1891، وربما اراد ابن الرشيد بهذا العمل ان يجعل الناس يعتقدون بانه غير طامع في الحكم ، وبذلك يحصل على سمعه جيده، وكان لهذه الخطوة مكاسب فيما بعد ، فكان ابن الرشيد رجل السياسة القوي الذي يعرف مايريد .

اتصل الأمير محمد بن الرشيد بالدولة العثمانية بعد الانتصارات التي حققها على آل سعود 1888، معترفاً بتبعيته للباب العالي، وكذلك أعلن أن هذه الفتوحات التي قام بها في شبه الجزيرة العربية إنما قام بها باسم السلطان العثماني عبد الحميد، وبالمقابل رحبت الدولة العثمانية بهذا الإعلان، وفي السنة نفسها دارت شائعات مفادها إن الأمير محمد بن الرشيد يعد حملة باسم العثمانيين لغزو عمان المتصالحة، وبالتعاون مع شيوخ قطر آل ثاني، مما جعل الحكومة البريطانية تتصل بالدولة العثمانية تطلب الاستفسار، فردت الدولة العثمانية بأن لا علاقة بين ابن الرشيد والسلطان العثماني أكثر من تبادل الهدايا في المناسبات فقط ، تأكد السفير البريطاني في القسطنطينية من صحة نوايا الدولة العثمانية، حيث لاحظ وجود تضارب في السياسات بين الجانبين، بالنسبة لأبن الرشيد يريد توسيع

نفوذه ليصل الإحساء وكذلك يريد الاستقلال عن الدولة العثمانية، في حين أن الدولة العثمانية كانت منذ البداية تريد السيطرة بصورة مباشرة على جزيرة العرب.

في سنة 1890 وحين عقدت هدنة مؤقتة بين آل سعود وآل الرشيد على أثر محاولة سالم السبهان عامل ابن الرشيد في الرياض، اغتيال الأمير عبد الرحمن طلب كلا الطرفين مساعدة الدولة العثمانية ، فاتهم ابن الرشيد آل سعود بتنفيذ خطط معادية للعثمانيين المتمركزين في الإحساء، كما شكا عبد الرحمن للعثمانيين اعتداءات ابن الرشيد، إلا أن الدولة العثمانية كانت أقرب إلى تجاهله.

يعد محمد بن الرشيد أول من أسس روابط سياسية مع الدولة العثمانية فاتصل بالسلطان العثماني عبد الحميد وتقرب إليه، وكان يقدم له كل سنة عدداً من الخيول الأصيلة، فحصل بذلك على ثقة السلطان وحظي بمكانة مميزة لم يبلغها أحد من أمراء العرب آنذاك، وساندته الدولة العثمانية كثيراً من ناحية الإمدادات وغيرها حتى انتفع بهذه المساندة من جاء بعده. تعود علاقة محمد بن الرشيد بالدولة العثمانية إلى مرحلة سابقة لتوليه مقاليد الحكم، حيث كان مسؤولاً عن إدارة الحج العراقي مقابل راتب يتقاضاه من ولايتي بغداد والبصرة، فتوطدت علاقته الشخصية بالدولة العثمانية منذ ذلك الحين، لكن بعد أن زادت أطماعه ونفوذه قامت الدولة العثمانية بإرسال بعثة عثمانية إلى حائل لتعرض على ابن الرشيد رغبة الدولة العثمانية في إنشاء مسجد ومدرسة في حائل إلا أن ابن الرشيد تجاهل هذه الطلبات، ولم تقتصر العلاقة عند هذا الحد، بل عمدت الدولة العثمانية إلى تقليده النياشين الرفيعة، وأصبحت تعتمد عليه كثيراً وتعده من أكبر التابعين المخلصين لها، وعلى الرغم من إقراره بالتبعية العثمانية إلا أنه كان يتصرف بحرية تامة واستقلالية خالصة داخل إمارته، وكان له سفير في القسطنطينية وممثل له في كل من بغداد ودمشق والمدينة المنورة ويتعامل مباشرةً مع الدول الاجنبية. بقيت العلاقات جيدة نتيجة لترابط المصالح بينهما، فمن ناحية الإمارة تعتمد على حصولها على المواد الضرورية من تخوم الفرات، وكذلك هي بحاجة لإكساب سلطته صبغة دينية وشرعية، كما أن الدولة العثمانية أرادت القضاء على آل سعود، فرأت أن تشجع آل الرشيد على ضرب آل سعود، ووجدت أن خير وسيلة للقضاء على السعوديين التقارب مع إمارة حائل، وبذلك جعلها قوة منافسة لآل سعود.

أصبح محمد بن الرشيد الرجل القوي في شبة جزيرة العرب بعد توسيع نفوذه وانتصاراته المتكررة في المنطقة. وبعد هذا سعى إلى تثبيت مركزه عند الدولة العثمانية وبالمقابل قبلت الدولة العثمانية صداقته، ونتيجة لحصوله على تأييد من الدولة العثمانية وسع ابن الرشيد نفوذه في المناطق، وبذلك أصبحت إمارة حائل هي العاصمة الوحيدة لشبه جزيرة العرب.

وبالرجوع إلى علاقة الأمير محمد بن الرشيد بالدولة العثمانية، ففي 1872 عقب تولي محمد بن الرشيد إمارة شمر مباشرةً بدأ الاحتكاك غير الودي مع الدولة العثمانية، إذ هاجمت قوة عثمانية صغيرة تضم عدداً من الجنود السوريين والمغاربة غير النظاميين مدينة جوف الأمير في أقصى الشمال من معان، وتمكنت من الاستيلاء عليها من دون مقاومة تذكر، وعلى أثرها سارع محمد بن الرشيد إلى دخول المدينة، وأجرى مفاوضات مع الحامية العثمانية التي دخلت المنطقة، وتم الاتفاق بين الجانبين على أن تبقى الجوف تابعة لإقليم الوشم، لكن بشرط أن يدفع ابن الرشيد عنها جزية سنوية قدرها 1500 مجيدي للسلطان العثماني، وأن يقبل وجود قائمقام، عثماني وحامية عسكرية في المنطقة، وفي سنة 1874 تمرد الجنود المغاربة الذين جاؤوا مع الحامية العثمانية لعدم تسلم رواتبهم، وبذلك سلموا المكان لابن الرشيد الذي ضمه إليه مرة أخرى وجعل معظم جنود الحامية من حرسه الخاص.

يبدو أن علاقة ابن الرشيد توثقت كثيراً مع الدولة العثمانية قرب نهاية حكمه ويبدو هذا طبيعياً كجزء من رد الإحسان بالإحسان، فمن جانب الدولة العثمانية زادت اهتمامها بابن الرشيد كما بينا من أجل استخدامه لضرب آل سعود والاستفادة من قوته المتنامية في المنطقة.

وبعد أن جاءت البعثة إلى حائل عام 1886 طلبت إنشاء مسجد ومدرسة أغدق ابن الرشيد عليها الهدايا، وفي سنة 1888 حين بدأ ابن الرشيد يحرز انتصاراته في نجد، حرص أن يبلغ السلطان بانتصاراته التي حققها الانتصارات من أجل الدولة العثمانية ولصالحها، أحياناً كانت تقع بعض الاحتكاكات بين أبن الرشيد والسلطات العثمانية في الإحساء.

استند محمد بن الرشيد في توسيع إمارته وتشيدها على سياسة (فرق تسد) واستند الى قوة عشيرته التي كانت من كبريات العشائر في شبه الجزيرة العربية المشهورة بالشجاعة والفروسية.

نتيجة لتزايد طموح محمد بن الرشيد، ونتيجة للتأييد الذي حصل عليه من الدولة العثمانية وسع حدود إمارته، هذا الوضع الجديد أقلق الدولة العثمانية وجعلها تخشى تغيير الأوضاع الجديدة نتيجة لتغيير موازين القوى في المنطقة، لذلك سعت الى تشجيع الخلافات والتنافس بين زعماء العرب بهدف إضعافهم وضرب بعضهم ببعض. لاسيما وأن ابن الرشيد كان ذكياً وماكراً مستنيراً ومتطلعاً بصورة جيدة ويعرف ما يفعل.

على الرغم من كون العلاقات جيدة بين ابن الرشيد والدولة العثمانية، إلا أن هناك مسألة أثيرت وربما ستأثر على العلاقة بين الجانبين، وهي قبيلة حرب (*) هذه القبيلة الكبيرة التي تعد من كبريات قبائل شمر، ويبدو أن هذه القبيلة كانت مصدر إزعاج للدولة العثمانية، ومصدر الرعب بالنسبة للحجاج الذين يذهبون سنوياً إلى مكة لأداء فريضة الحج، حيث يهاجمونهم ويسلبونهم جميع ما لديهم واحياناً يؤخرونهم لأسابيع وشهور، بالرغم من وجود قوة عسكرية تصل إلى 1000 رجل ترافقهم، فأنهم لا يستطيعون إيقاف هذه الهجمات،وبالتالي هذا يؤثر سلباً على الدولة العثمانية، لأن طريق الحجاج هي مسؤولة عليه وباعتبارها مسؤولة عن الحرمين الشريفين فيجب عليها تأمين الطريق، ويبدو أن الوسيلة الوحيدة للقضاء على هذا التمرد يتم بوضع القافلة في وسط القوات المرافقة للحملة، وبالتالي يتم التحرك بهذا الشكل.

إن الدولة العثمانية كانت لا تنشر مثل هذه الأخبار المربكة والمخلة بأمن المنطقة، والمحرجة في الوقت نفسه، فمن بين ألقاب السلطان أنه "حامي الحجيج إلى مكة"وهذا ليس لقباً عابراً إنما هو مسؤولية بمعنى الكلمة، ويدل على التزاماته ومسؤولياته، فإذا ما حدث مثل هذه الأعمال فإن اللوم يقع على الدولة العثمانية بالتأكيد وطلبت الدولة العثمانية من الأمير محمد بن الرشيد أن يوضح إذا ما كان هؤلاء البدو الذين يهاجمون القوافل هم من رعاياه.

يعتقد أن هناك تناقضاً كبيراً في سياسة ابن الرشيد، مما أدى إلى طرح مثل هذا السؤال بالنسبة لمحمد بن الرشيد، فكان يدعي أنه صديق حقيقي ومخلص للدولة العثمانية، وادعى بأنه ليس لديه السيطرة الكاملة على قبائل حرب وهجماتهم المكررة على القوافل،

وحيث أن الجميع يعرفون العلاقة القائمة بينهم، حيث كانت قبيلة حرب دائماً إلى جنب أمراء حائل على مدى عشرين سنة، وعندما حدثت معركة الميليداء 1891 نرى أن قبيلة حرب وقفت إلى جانب ابن الرشيد، وبعد الحرب قام بتوزيع الغنائم عليهم لاسيما البنادق القديمة فكانت كلها من حصتهم مما جعل الدولة العثمانية تتهمه بتسليح هذه القبيلة للقيام بهجماتهم المستمرة على القوافل المارة.

كانت قوافل الحجاج الفارسية التي تصل من بغداد والبصرة تمر في حائل وتحمل بريداً من ابن الرشيد، وبعدها تنطلق إلى مكة المكرمة والمدينة يرافقها عدد قليل من فرسان ابن الرشيد تكون أقل عرضة للهجوم، ونستنتج من هذا بأن قبيلة حرب حتى وان لم تكن من إتباع ابن الرشيد بصورة مباشرة، فأن رغبات الأمير ابن الرشيد هي رغبات مسموعة وأوامر بالنسبة لهم وإذا أراد أن يضع حداً لهذه القبيلة أمكنه ذلك بكل سهولة.

هناك ثلاثة احتمالات تمكن الدولة العثمانية من القضاء على مثل هذه الأعمال العدائية عل قوافل الحجاج:

- على العثمانيين إحاطة قوافل الحجاج بعدد أكبر من القوات لحمايتها وهذا الخيار مستحيل لقلة الماء ومشكلة الإمدادات وغيرها.
- وإما أن يتم تدمير هذه القبيلة المسببة لهذه الأعمال بشكل نهائي حيث تتم مداهمتهم وهم في خيامهم، وهذا الشيء أيضاً مستحيل لأن ليس لديهم مناطق ثابتة يستوطنون بها ومحددة، فإذا ما أحسوا بهجوم قريب فروا إلى الصحراء الشاسعة وهم مطمئنون لأنهم يعرفونها جيداً.
- يمكن المساومة معهم، ويتم ذلك بدفع مبالغ مالية طائلة لدفع شرهم وبالتالي سيكون نقطة ضعف تحسب على الدولة العثمانية باعتبارها قوة عظمى خاضت الكثير من الحروب، واستطاعت احتلال الجزيرة العربية واعترف الأمراء لها بالتبعية، وهذا الشيء لا يتناسب معهم.

علل ابن الرشيد عدم قيامه بتأديب هذه القبيلة بقوله: " سيكون من الجنون الواضح استخدام القوة على من هم حلفائي وجزء مني وحتى أن فعلت فكل فرساني وقوة جمالي لن تكون ذات فائدة وغير قادرة على هزمهم وهم في تلك الجبال الرهيبة العالية.

وهذا يفسر لنا أن لهذه القبيلة النفوذ الكامل والسيطرة على المناطق الساكنين فيها ولا يعترفون بسلطة ابن الرشيد فهم يقاتلون تحت أمرته من أجل الحصول على غنائم

الحرب، لذلك فكانت هذه القبيلة من القبائل القوية التي يمكن للأمير محمد بن الرشيد الإستناد عليها وقت الحرب بسبب قوتها وشجاعة أفرادها وكثرة أعدادهم البالغ 15,000.

ملامح الدولة السعودية الثانية والعوامل التي ساعدت في انهيارها

- اختلفت الدولة السعودية الثانية على الدولة السعودية الأولى بسبب الحروب الأهلية المستمرة، التي شهدتها الدولة السعودية الثانية، والتي أسهمت بالقضاء عليها، وكان أهم علماء الدولة السعودية الثانية قد ولدوا في عهد الدولة السعودية الأولى وتعلموا في ذلك العهد، ولكن أكثر أعمالهم وإنتاجهم كان في عهد الدولة السعودية الثانية.

إن العامل الرئيس الذي أدى إلى إنهيار الدولة السعودية الثانية هو الصراع بين الأخوة، ويبدو أن الصراع كان عقائدياً أكثر منه سياسياً حيث أن عبد الله بين فيصل كان يتبع الدعوة الوهابية، وسعود كان متفتحاً أكثر منه ، وكذلك فقد تم نقل الصراع بين الدولة العثمانية والبريطانيين إلى الجزيرة العربية، فاستعان سعود ببريطانيا وحلفائها من أعداء الدولة السعودية ضد أخيه عبد الله الذي استعان بوالي بغداد مدحت باشا التابع للدولة العثمانية، وكانت هاتان من مصلحتها أن يستمر الصراع بين الأخوة، لذلك كانتا الدولتان تعملان على تشجيع الخلافات وتحريضها. كذلك أطماع الدولة العثمانية لاسيما بعد انتهائها من حرب القرم ، وبعد فتح قناة السويس 1869 حاولت أن تبسط نفوذها على سواحل الخليج العربي، فعينت مدحت باشا على ولاية بغداد، وهي ترجو منه أن ينفذ أطماعها وخططها في المنطقة، وكان مدحت باشا يهدف إلى بسط السيادة الفعلية على نجد بدل السيادة الإسمية لها.

كذلك تزايد قوة آل رشيد في حائل مع أن إمارة حائل كان تشكيلها في وقت مبكر لا يتعدى الثلاثينات من القرن التاسع عشر، إلا أنها بدأت تنمو وتتقدم حتى أصبحت إمارة مستقلة استقلالاً ذاتياً تتبع الدولة السعودية، إلا أنهم استطاعوا استغلال الصراع الأخوي لتحقيق أطماعهم في مد وتوسيع نفوذ إمارة حائل، ومنهم محمد بن الرشيد، وعبد العزيز بن الرشيد، وكان الأمير عبد الله بن فيصل ضعيفاً متزمتاً دينياً على عكس أخيه سعود الذي كان متحرراً أكثر منه في العادات والتقاليد المتبعة وقتذاك في نجد، وهذا ما جعل الناس تنفر من عبد الله ورأوه غير كفوء للحكم ويجهل الأمور السياسية لذا سلم الحكم لأعوانه وخدمه من دون أن يختار الأكفأ منهم، وهذا الفعل كان له الأثر الكبير في ضعف الدولة وضياعها بسبب ضعف السلطة المركزية في الرياض، فضلاً عن عدم وجود جيش

منظم للدولة إذ كان الجيش يعتمد على البدو من القبائل، ويجتمع متى احتاجت الدولة لذلك ويتفكك بعدها، فلو كان هناك جيش منظم للدولة لما استطاعت القبائل البدوية الانضمام إلى أخيه سعود ضد عبد الله، ولكانت الكلمة العليا والوحيدة للجيش ، كذلك كثرة الغزو الخارجي فلقد كانت الدولة تواجه صعوبات من الخارج لكثرة الأعداء الذي كانوا يتربصون بها، كما كان للاضطرابات الداخلية بالغ الأثر، فكانت الدولة مشغولة باستمرار لإخضاع تمردات القبائل ضدها، إذ كانت هذه القبائل كثيراً ما ترفض الزكاة المفروضة عليها، وكانت القبائل تغير أحداها على الأخرى، وهذا ما كان يستدعي الدولة أن تقوم بعمليات تأديبية ضدهم، مما سيكلف الدولة كثيراً.

المصادر والمراجع

1. ج . ج لوريمر ، دليل الخليج القسم التاريخي ، ج3 ، الدوحه 1967 .
2. مقبل الذكير ، العقود الدريه في تاريخ البلاد النجديه ، مخطوطه محفوظه في دار المخطوطات العراقيه تحت رقم 40353 .
3. جبار يحيى عبيد ، التارخ السياسي لامارة حائل 1835 – 1921 ، رسالة ماجستير غير منشوره ، كلية الآداب ، جامعة بغداد 1987 .
4. وداد خضير حسين الشتيوي ، موقف الدوله العثمانيه من آل سعود 1891 – 1914 ، رسالة ماجستير غير منشوره ، كلية الآداب ، جامعة البصره 1989 .
5. أليكسي فاسيلييف ، تاريخ العربيه السعوديه ، ط1 ، بيروت 1995 .
6. ادورد نولده ، الاوضاع السياسيه في وسط الجزيره العربيه عند نهاية القرن التاسع عشر (حائل – القصيم – الرياض) ترجمة عوض البادي ، ط1 1997.
7. عمر ابراهيم الزبيدي ، الفسيفساء السعوديه الفكر الفلسفي و المذهبي و السياسي في المملكه العربيع السعوديه ، مج1 ، ط1 ، بيروت 2011 .
8. عبد الفتاح حسن ابو عليه ، الدوله السعوديه الثانيه 1840 – 1891 ، ط1 ، الرياض 1974 .